



Uluslararası Sempozyum

International Symposium

المؤتمر العالمي

3-5 Ekim - October 2004 Istanbul / Turkey

٣-٥/١٠/٢٠٠٤ استانبول - تركيا

المؤتمر العالمي السابع  
لبديع الزمان سعيد النورسي

# ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووثام في عالم متعدد الثقافات  
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

Ekim 2004

الترقيم الدولي

ISBN: 975-269-043-2

شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

# قراءة تحليلية

## في النظرة النورية إلى المسألة الغربية

(العالم الإسلامي والغرب: الحوار والفهم المتبادل)

أ.د. قطب مصطفى سانو  
مدير المعهد العالمي لوحدة الأمة الإسلامية  
بماليزيا

تقديم الدراسة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن  
ولاه، وبعد،

فهذه صفحات معدودات عنيت بنسجها حول النظرة النورية الناصعة المحكّمة إلى  
المسألة الغربية، تلك النظرة التي نخاها لم تحظ ما تستحقه من التحليل والتحقيق  
والتوضيح على الرغم مما لها من أهمية موضوعية جلية، ومكانة علمية دقيقة، ولئن  
عاش العالم الإسلامي ردحا من الزمن أسير النظرات الفكرية المتطرفة — يمينا أو  
يساراً — إزاء المسألة الغربية، بل لئن تفاوتت تحليلات النخب والمفكرين حول هذه  
المسألة، فأورثوا المسلم العادي قلقا واضطرابا وتذبذبا في موقفه من الغرب إن سلبا  
أو إيجاباً، لئن كان كل ذلك كذلك، فإن الحاجة اليوم تمس إلى إلقاء مزيد من الضوء  
على النظرة النورية التي أوفت على الموضوعية والعلمية والمنهجية الشاملة والواقعية  
العميقة.

إننا نحسب أن النظرة النورية إلى المسألة الغربية إذا نالت حظها من التحليل  
العلمي الرصين والتحقيق الفكري الشامل، فإنها ستسهم — إلى حد كبير — في إنقاذ

العالم الإسلامي مما يجتاحه من محن وإحن وقلقل وامتهانات لكرامته وعزته نتيجة انخداع وانبهار شطر كبير من مفكريه بالنظرات غير الدقيقة إلى المسألة الغربية. كما أننا نحسب أن انطلاق مهندسي سياسات العالم الإسلامي من النظرة النورية في رسم علاقة الأمة بالغرب بعجره وبجره من شأنها إنقاذ الجيل الصاعد من الناشئة مما هم واقعون فيه من انخداع وانهمزام وتطرف في الرؤية والنظرة إلى المسألة الغربية، فضلاً عن أنه من شأن الأخذ بتلك النظرة القيمة، فتح باب واسع ومتين من الحوار والتواصل بين العالم الإسلامي والغرب، وذلك على أساس متين من القيم المشتركة المتمثلة في المبادئ السامية التي تقوم عليها الشرائع السماوية كلها، والتي تدعو أتباعها إلى نبذ العنف والتزمت والتطرف وحل الحوار محل الصراع، والتعاون محل التنافر، والتكامل محل الانزواء والانطواء.

وتأتي هذه الورقة المتواضعة لتأخذ بزمام المبادرة إلى دعوة المخلصين من المفكرين إلى أن يولوا النظرة النورية جانب التحقيق والدراسة والتحليل، كما تروم هذه الورقة دعوة مهندسي السياسات المصرية لعموم الأمة إلى الاستعانة بهذه النظرة العلمية الدقيقة الفائقة، ذلك لأنها تتضمن قدرًا غير يسير من البيّنات والمرتكزات من شأن الأخذ بها خلاص عموم الأمة مما تعاني منها اليوم من غبش في الرؤية إلى المسألة الغربية.

ولقد آن الآوان للمفكرين والنخب في الأقطار الإسلامية أن يتحلوا في نظراتهم بالشجاعة الفكرية كما فعل الإمام المبدع بيدع الزمان، كما آن لهم الآوان أن يترفخوا في نظراتهم عن إملاءات رجال السيف وضغوطات العوام، فالمفكر المخلص لا ينبغي له بأي حال من الأحوال أن يخضع في فكره ونظرته لأهواء العوام، كما لا ينبغي له أن يتطلع إلى إغراءات الحكام، بل يجب أن يطمح في فكره ورؤيته إلى انتشار العوام من برائن التخلف الفكري والهوان الذهني، ويصبوا إلى الأخذ بأيدي الحكام إلى ما فيه صلاحهم وصلاح الرعية.

ورحم الله الإمام البديع، فقد كان مفكراً مخلصاً لدينه ولأمته وللإنسانية كلها، وكان رجل القدر في حياة أمة، وإن رسائل النور التي ورثناها لخير شاهد على هذا

الإخلاص الباهر، والتفاني العميق في خدمة الإسلام والمسلمين، وتوعية العامة، وإرشاد الخاصة.

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أزجي شكري الجزيل إلى القائمين على هذا المؤتمر، وأدعو لكم بمزيد من التوفيق والسداد، فعسى الله أن يجمعنا به ويأماننا في جنان الخلد في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والله يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل.

قطب مصطفى سانو  
طالب رسائل النور، نزيل كوالالمبور، ماليزيا

## المبحث الأول

### أوروبا بين النفع والضرر: عرض وتحليل

في خضم تراكم الأحداث المفجعة، وتلاحق المحن المبكية، وتكاثر الابتلاءات الإلهية، وتأخر الأحلام والتطلعات المعسولة، وفي غمرة تكالب الأعداء، وتفرق الأصدقاء، وتمزق الأوصال، وتشتت الكلمة، في هذه الأثناء، يصعب للمرء أن يتكهن التزام المبتليين الموضوعية والعلمية في النظرة إلى الغالبيين، بل لا غرو أن يعلو التشاؤم والتبرم شفاه المغلوبين المهزومين، ولا عجب أن يغدو الانبهار والانخداع والولع بطريقة الغالبيين منهلاً ينهل منه المنهزمون، مصداقاً لما قرره عالم العمران الإسلامي المؤرخ ابن خلدون في مقدمته بأن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده، ذلك لأن

".. النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه؛ أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها، حصل لها اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به.." <sup>1</sup>.

لئن كانت هذه المقولة ذات نصيب وافر من المصادقية والواقعية لكون معظم الأبحاث والدراسات والمؤلفات التي ألفها جمع غير منكور في المسألة الغربية تأكيداً وتقريراً لها، ولا يكاد أحد من أولئك الكتاب والمؤلفين والباحثين يسلم من الانبهار أو الانخداع، ولئن كان ذلك كذلك، فإن الإمام البديع بديع الزمان النورسي — رحمه الله — دفع بثقله الفكري والعلمي والمنهجي صوب كلتا النظرتين الانهزامية والانخداعية، فأوسعهما مراجعة وتقويماً وتصحيحاً، ودعا إلى التخلي عن كليهما، كما أنه عني — بطريقته الخاصة — اعتماد منهجية بديلة تنطلق من المنهجية والموضوعية وترتكز على الواقعية في النظرة إلى الأشياء، وتنبأ من الانهزامية والانخداعية بحسبهما آفتين مضرتين بالأمم الراجعة في الترقى والتقدم والتطور، وتصحيح الماضي، والوعي على الحاضر، والتخطيط للمستقبل.

وسعيًا إلى مزيد من التحليل والتحقيق للنظرة النورية المحكمة إلى المسألة الغربية في ضوء ما مني به العالم الإسلام من هزيمة وانسحاب إبان الحربين العالميتين، نرى أن نصغي إلى ما أدلى به الإمام البديع محمداً الموقف الأحكم من المسألة الغربية في كتابه اللمعات، حيث قال ما نصّه:

".. حينما سار "سعيد الجديد"<sup>2</sup> في طريق التأمل والتفكير، انقلبت تلك العلوم الأوربية الفلسفية وفنونها التي كانت مستقرة إلى حد ما في أفكار "سعيد القديم" إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة في تلك السياحة القلبية، فما كان من "سعيد الجديد" إلا القيام بتمخيض فكره، والعمل على نقضه من أدران الفلسفة المزخرقة، ولوثات الحضارة السفهية، فرأى نفسه مضطرا إلى إجراء المحاوراة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوروبا لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوروبا، فهي محاوراة مقتضبة من ناحية، ومسهبية من ناحية أخرى. ولئلا يساء الفهم، لا بد أن ننبّه: أن أوروبا اثنتان: إحداهما: هي أوروبا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات حياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب — في هذه المحاوراة — هذا القسم من أوروبا؛ وإنما أخاطب أوروبا الثانية، تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فسافت البشرية إلى السفاهة، وأردتها الضلالة والتعاسة. ولقد خاطبت في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استثيت محاسن الحضارة.<sup>3</sup>

وأما في كتاب المثنوي العربي، فقد عني بتقرير هذا القول وتأكيده حيث قال ما نصه:

".. إن أوروبا اثنتان: أحدهما نافع للبشر باستفادته من الدين العيسوي والمدنية الإسلامية، أظهر بإحسان الله ما يستريح به البشر في هذه الحياة.. وأوروبا الثاني: خالف الأديان السماوية، واستند بالفلسفة الطبيعية المادية، وغلبت سيئات المدنية حسناؤها، وصار سببا لمشقة أكثر البشر وشقاوتهم."<sup>4</sup>

وأما تاريخ هذه السياحة الروحية المعنوية، فإنه يعود إلى أيلول عام 1919م عندما دهى العالم الإسلامي أمرٌ لا عزاء له، مهدت لسقوط البقية الباقية من الخلافة الإسلامية في أقل من خمس سنوات بعد، وقد ولدت تلك الهزيمة النكراء التي تعرضت لها الخلافة الإسلامية شعورين متناقضين ومتضادين، أحدهما: الشعور باليأس والقنوط الذي دفع بالسواد الأعظم من الناس إلى التبرؤ من الغرب واستمراء العيش في كنف الماضي السليب، والتلذذ بتريده أمجاد ذلك الماضي مع رفض الأخذ بسائر وسائل وأسباب الترقى والتقدم والتطور، وأما الشعور الثاني، فقد تمثل في الرضى والقناعة بالدونية والانبهار والانهمزام والتبرؤ من الماضي التليد مع الاعتقاد الجازم بأن السعادة والرخاء والاستقرار والأمان مرهون كل أولئك بالتبعية الخالصة للغرب الغالب، وقد دفع

هذا الشعور كثيرا من النخب إلى الدعوة إلى الانجرار وراء الغالب وتقليده تقليدا أعمى في كل شيء قصد اللحاق به وتحقيق ما حققه من إنجازات وتطور وتقدم.

أمام هذين الشعورين، حاول الإمام البديع — كعادته — أن يجيي شعورا ثالثا لا ينتمي إلى أي من هذين الشعورين، وينبثق من إيمانه الخالص بأن الابتلاء لا يعني نهاية المطاف، بل يجب أن يعقبه صبر واصطبار وتعلم من الماضي، وإدراك الحاضر، والتخطيط للمستقبل، ولنصغ إليه وهو يصف لنا ما دفعه إلى إجراء تلك المحاورة الدقيقة العميقة بين نفسه وبين أوروبا بقسميه في كتابه الموسوم صيقل الإسلام، وهذا نص ما قاله:

".. كنت في أيلول سنة 1919م أتقلب في اضطراب شديد من جراء اليأس البالغ الذي ولّدته حوادث الدهر، كنت أبحث عن نور بين هذه الظلمات المتكاثفة القائمة.. لم أستطع أن أجده في يقظة هي رؤيا في منام؛ بل وجدته في رؤيا صادقة هي يقظة في الحقيقة.. دخلت عالم المثال في ليلة من ليالي الجمعة، جاءني أحدهم، وقال: يدعوك مجلس موقر مهيب منعقد لبحث مصير العالم الإسلامي، وما آلت إليه حاله؛ فذهبت، ورأيت مجلسا منورا قد حضره السلف الصالحون، وممثلون من العصور، من كل عصر ممثل.. لم أر مثيلهم في الدنيا، فتهيت، ووقفت في الباب تأدبا وإجلالا.. قال أحدهم: ماذا ترى في عاقبة هذه الهزيمة — التي آلت إليها الدولة العثمانية — وماذا كنت تتوقع أن يؤول إليه أمر الدولة العثمانية لو قدّر لها الانتصار؟ قلت: إن المصيبة ليست شرا محضا، فقد تنشأ السعادة من النكبة والبلاء مثلما قد تفضي السعادة إلى بلاء.. لقد فقدنا بهذه الهزيمة سعادة عاجلة زائفة، ولكن تنتظرنا سعادة آجلة دائمة، فالذي يستبدل مستقبلا زاهرا فسيحا بحال حاضر جزئي متغير محدود، لا شك أنه رابح.. فلو كنا منتصرين غالبين لكنا ننجذب إلى ما لدى أعدائنا من الاستعمار والتسلط، وربما كنا نغلو في ذلك.. فهذه المدنية.. التي لم نر منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان، وصحوته بالانقراض؛ فلو كنا منتصرين لكنا نتعهد حماية هذه المدنية السفية المتمرده الغدارة المتوحشة معنى في أرجاء آسيا.."<sup>5</sup>

هكذا صور الإمام المبدع الحالة النفسية التي كان عليها عندما صاغ نظريته إلى المسألة الغربية، والملاحظ في هذه النظرة أنها أتت بعد تلك الهزيمة الشنيعة التي ابتلي بها العالم الإسلامي إبان الحرب العالمية الأولى، ولا يخفى على المرء الحالة الكئيبة التي رافقت تلك الهزيمة، كما لا يخفى

دورها في نشأة الشعور باليأس والقنوط والانسحاب لدى شريحة غير منكورة من أبناء الأمة الإسلامية في ذلك الزمان، بل ليس بخاف دورها في نشأة الشعور بالانخداع والانهزام والانبهار لدى السواد الأعظم من النخب والمفكرين الذين حَيَّل إليهم أيامئذ أن الملاذ والمخرج يكمن في اتباع سنن الغالبين وتقليدهم في المأكل والمشرب والملبس والمخبر والمظهر بل في كل شيء حتى المنطق؛ غير أن الإمام البديع — رحمه الله — كعادته، لم يكن من صنف أولئك العلماء والمفكرين الذين تتأثر نظرتهم بالظروف الزمانية والمكانية والآنية، بل كان يرى من نور، ويقرأ الأحداث من وجهة نظر المفكر الحصيف المدرك للأبعاد، والمستشرف لما يحمله المستقبل من آلام وآمال وأحلام لعموم الأمة.

ولهذا، ما كانت نظرتة إلى المسألة الغربية لتتأثر أو تتحاز لأي من الشعورين السابقين، وإنما أرى إلا أن يستقل بنظرة منصفة علمية موضوعية وسط بعيد عن التوغل في المثالية المجرّدة، أو التغلغل في الواقعية المبالغ فيها. فالمدنية الحاضرة في خلده — رحمه الله تعالى — ذات مساوئ ورزايا لا تخطؤها العين، ولا يمكن أن ينكرها أحد إلا من أصيب بانطماس في الذاكرة، أو بغيش في الرؤية، وفي المقابل، فإن هذه المدنية تحمل بين طياتها — في الوقت نفسه — محاسن وحسنات، لا ينبغي إجحافها فيها، ولا يمكن التغاضي عنها، بل لا يعدو إنكارها إلا أن يكون بخسا للناس أشياءهم، وركوبا متن الشطط والضميم، ومكابرة يأبأها منطق العلم والمعرفة والتزاهة والإنصاف.

إن نظرة متفحصية في تلك المحاور العلمية الدقيقة التي قصد منها الإمام صياغة نظريته في المسألة الغربية، تهدينا إلى تقرير القول بأن الوسطية والاعتدال عند النظر إلى الأشياء كان الدافع والأساس الذي تقوم عليه نظرة الإمام، إذ إنه أكد في غير ما موضع في كتبه ومؤلفاته بأن أوروبا ليست كلها شرًّا كما يذهب بعض من البسطاء والبلهاء، إذ إن في أوروبا جانبًا كان ولا يزال نافعًا للبشرية، وقدّم — ولا يزال يقَدّم — خدمات جليّة للإنسانية برمتها، وهذا الجانب من أوروبا لا ينبغي نكرانه ولا تجاهله، ولكن في مقابل هذا الجانب المشرق من أوروبا، جانب آخر، كان — ولا يزال — ضارًا ومضرا بالبشرية، ولا تقتأ الإنسانية برمتها تعاني من الشقاء والتعاسة والمشاق التي جلبها إليها هذا الجانب الضار من أوروبا، وينبغي حذر العامة من هذا الجانب، كما ينبغي كشف عواره وتنبه الغافلين عن المساوئ والرزايا التي يتقلب فيها الجانب.

مادامت أوروبا اثنتين، إحدهما نافعة والأخرى ضارة، فإن للمرء أن يتساءل عن الأسباب الكامنة التي أدت إلى كون أوروبا الأولى نافعة للبشرية، وكون أوروبا الثانية ضارة ومضرة لها،

ذلك لأن النفع والضرر يعود كل منهما إلى فعل من البشر، وليس من فعل الإله جل جلاله؛ وإجابة على هذا التساؤل عني إمامنا — رحمه الله — بتحقيق القول في الأسباب التي جعلت أوروبا الأولى نافعة للبشرية، وحصر تلك الأسباب في سببين أساسيين، أولهما: سبب عقدي لا دخل للبشر في إيجادها، وثانيهما سبب مادي للبشر دخل في إيجادها، وأما السبب العقدي، فإنه يتمثل في التزام أوروبا الأولى بالبقية الباقية من النصرانية الحقّة التي لم تظالها يد التحريف والتغيير والتضليل والتبديل، ذلك لأن النصرانية الحقّة التي أتى بها المسيح — عليه السلام — تحث أتباعها على التعاون والتواصل مع أمم الأرض قاطبة، وتدعو إلى الرحمة والسماحة والتواضع وصلة الرحم، وتنهى عن الظلم والحيف وسفك الدماء، وهتك الأعراض، وترفع من شأن الفضائل والخصال الحميدة في المجتمع، وتحط من قدر الرذائل والفساسف بجميع صورها وأشكالها في المجتمعات، وهذه النصرانية الحقّة تقوم في جذورها على الحنيفية السمحاء التي تجمع بين الأديان السماوية كلها، وقد بعث بها أيضا نبينا — عليه صلوات ربي وسلامه — ووصفها ذات يوم بأنها اللبنة التي تكمل بقية البناء.

إن التزام أوروبا الأولى بجملة حسنة من مبادئ النصرانية الحقّة هو الذي جعلها نافعة للبشرية، ذلك لأن هذا الالتزام عصمها من التسلط والتجبر والتكبر في الأرض علواً واستكباراً، كما عصمها من الاعتداء على الأبرياء، ودفعها إلى تسخير إنجازاتها لخدمة البشرية وتسهيل حياة الإنسان على الأرض، فضلا عن استعدادها للتعاون والتواصل مع أمم الأرض قاطبة.

وأما السبب المادي الآخر الذي جعل أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإنه يعود — في نظر الإمام — إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها للبشرية من خلال ما توصلت إليه من صناعات وعلوم وإنجازات تخدم القاصي والداني من البشر، وترفع عن العالمين المشاق والصعاب وتذلل لهم العقبات والعراقيل، وتقصر لهم المسافات والاتصالات، وتوفر لهم وسائل الراحة والرفاهية والترفيه، وتقضي على ما كانت البشرية تعاني منه من متاعب في المركب والمسكن وسواهما، فضلا عن ذلك، فإنها ترفض استخدام تلك الإنجازات فيما لا يعود بالنفع على البشرية.

على أنه من الحري بالتقرير أن أوروبا — الأولى أو الثانية — لم تصل إلى هذا المستوى من الترقى والتقدم والتطور إلا من خلال ما تميزت به من ابتكار وإبداعية وعمق في التفكير والتخطيط والنظام، والتزامها الحزم والانضباط والروية والأناة فيما تقدم عليه من عمل أو صناعة، وفي هذا يقول الإمام النورسي في صيقل الإسلام منصفاً القوم كل الإنصاف:

"..كان سبب رقيها — أوروبا — هو التأني في أخذ كل شيء أو تركه.. والصلابة في الأمر التي هي من شأن برودة بلادهم.. ونمو الفكر والمعرفة والتوجه إلى الصناعة لكثرة السكان وضيق المكان والمساكن.. والتعاون والتتبع الحاصلين من وجود الوسائط المساعدة كالبحر والمعادن وأمثالها.."6

إن هذه الخصال التي لخصها الإمام النورسي في بيان رفيع تعد في حقيقتها أسباب تقدم الشعوب ونهضة الأمم، كما تعد قيم الحضارات وذرورة سنامها، وما أخذت بها أمة من الأمم إلا وكان التقدم المادي والتطور الحضاري نصيبها ورفيقها وحليفها، وما تخلت عنها أمة من الأمم إلا وكان التخلف المادي، والتأخر الحضاري ملازما وشريكا لها، وتلك سنة الله الماضية في الأمم قاطبة، ولم ولن تتخلف في أمة قط مهما سمت أو دنت عقيدتها، وبتعبير آخر، اقتضت سنة الله أن الأمم التي تنطلق من هذه القيم وتمسك بها، لا بد لها من أن تكافئ بتقدم وتطور ماديين، وحرى بها أن تقود الأمم التي لا تلقي بالا بهذه القيم. وقد أكد هذا الأمر الإمام النورسي في كتابه الكلمات حيث قال ما نصه:

"..فمما ينبغي ألا ننكر أن في المدنية محاسن كثيرة إلا إنها ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم، وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحث الشرائع السماوية، ولا سيما الشريعة المحمدية، وحاجة الفطرة الإنسانية.."7

إن سداد المعتقد وسلامة النية لا يكفیان لبناء الحضارات، كما أنهما لا يكفیان للحفاظ على الحضارات، بل إن بناء الحضارات أو الحفاظ عليها لا بد له من قيم متمثلة في سلوكيات عملية تقوم بتحقيق ما يدعو إليه المعتقد، وترجمة توجيهات المعتقد في واقع عملي ملموس. ويعني هذا أن الانهيار والانخداص بصحة المعتقد وسموه دون التزام أمين بالقيم المشار إليها لا يعدو إلا أن يكون خروجًا سافرًا على سنة الله في قيام الحضارات والحفاظ عليها، كما لا يعدو ذلك إلا أن يكون تأكيدًا على عدم تمكن المعتقد في نفوس الأتباع.

على أنه من الحري بالتقرير أن عدم سداد المعتقد وسلامة النية لا يحولان — بأي حال من الأحوال — دون تحقق التقدم المادي والتطور الحضاري — المظهري على الأقل — إذ إن تحقيق التقدم لا يلزم بالضرورة سداد المعتقد أو سلامة النية، وإنما يكفي الالتزام بالقيم والسلوكيات التي سبق الإشارة إليها. ولهذا، فلا يعجبن أمرؤ من تقدم أمم أوروبا، وخاصة أوروبا الثانية على الرغم

من انفلاتها وتمردتها على مبادئ النصرانية الحققة في عالم المثال، بل لا عجب أن يعانق التقدم والتطور حياة بعض الأمم التي نعتها أما غاية في الإفلاس الأخلاقي والعقدي.

وأيا ما كان من أمر، فإننا نخلص إلى تقرير القول بأن السبب المادي وقبله السبب العقدي هما اللذان جعلتا أوروبا الأولى نافعة للبشرية، وهذا النفع ماض قدما كلما قوي تمسك أوروبا بهما.

ولئن كان هذا تحليلاً لأسباب كون أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإن ثمة أسباباً لكون أوروبا الثانية ضارة ومضرة للبشرية، وقد عني الإمام — رحمه الله — بتحريم القول في هذه الأسباب في جملة من كتبه، منها ما قاله في المتنوي العربي، وهذا نصه:

"..اعلم! يا أيها الأوروبي، إنك أخذت يمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبيسارك المدنية المضرة السفهية، تدعي أن سعادة البشر بهما؛ شلت يداك، وبئست هديتناك.."<sup>8</sup> وقال ما نصه في اللمعات: "..وإنما أحاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية.. يا أوروبا الثانية! اعلمي جيداً أنك قد أخذت يمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفهية، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شلت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون.."<sup>9</sup>

إن نظرة متمعنة في هذا الوصف الدقيق للأسباب التي جعلت أوروبا الثانية ضارة ومضرة، تفضينا إلى تقرير القول، بأنه إذا كان الالتزام بالبقية الباقية من مبادئ النصرانية الحققة أو الدين العيسوي السبب العقدي الأساس في اعتبار أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإن تجرد أوروبا الثانية عن مبادئ هذه النصرانية يعد السبب الأساس في كونها أوروبا ضارة ومضرة بالبشرية؛ وأما السبب الثاني الذي جعل أوروبا الثانية غير نافعة، فإن ذلك يعود إلى لجوئها إلى استخدام نتائج الصناعات والإنجازات التي توصلت إليها فيما لا يعود على البشرية بنفع ولا فائدة، بل إنها تقود البشرية إلى مهاوي الدمار والضلال والضياع والتهيه، مما جعل هذه أوروبا أكثر إضراراً وإساءة إلى البشر.

إن أوروبا الثانية ناقضت أوروبا الأولى من حيث رفضها الالتزام بمبادئ النصرانية الحققة، كما ناقضت من حيث توظيفها إنجازات حضارتها ونتائج علومها وصناعاتها فيما يضر بالبشرية. ورحم الله الشيخ الغزالي عندما عبر عن حالة هذه أوروبا، فقال ما نصه:

".. إن المدنية الحديثة قضت على التسامي الروحي، وأيقظت الأثره الحيوانية، وأقرت نمطا من الحياة بجنون التسمية وزيادة الإنتاج، ثم تسخير هذه النتائج الكبيرة لخدمة أغراض خسيصة.." <sup>10</sup>

وانطلاقا إلى أنه ليس من الوارد تعذر عيش الإنسان على هذه الأرض دون أن يستند إلى معتقد ولو كان فاسدا ودينيا، فإنه كان لا بد لأوروبا الثانية من أن تتبنى بعد تمرداها على الديانة النصرانية ومبادئها، ديانة أخرى محرقة من الديانة الصحيحة الحققة تتخذ من الفلسفة المادية <sup>11</sup> أساسا لها، وتقوم على التنكر الصارخ للخالق المدير العزيز الحكيم، وتنأى بنفسها عن مبادئ النصرانية الصحيحة رغم ادعائها إياها، كما أنها تلفظ في كثير من سلوكياتها القيم والأخلاق الحميدة التي أتى بها الدين العيسوي، ولا تعترف بنبات تلك القيم أو الأخلاق في المجتمعات، بل إنها ترى قيما وأخلاقا خاضعة للظروف والأزمته والأمكنة انطلاقا من مبدأ التفسير المادي للتاريخ، والمعتقد والأخلاق، فكل شيء يحدث في المجتمع وفق هذا المبدأ إنما يحدث للظروف المادية، فالمادة هي المسؤولة عن تشكيل المعتقد والأخلاق، وتتأثر سلوكيات الأفراد والجماعات بالمادة. وفي هذا يقول الإمام متعجبا من هذه النظرة المادية لأوروبا الثانية:

".. يا أوروبا الثانية الفاسدة! إنك تستندين إلى أسس واهية نخرة، فترعمين أن كل كائن حي مالك لنفسه، ابتداء من أعظم ملك، وانتهاء إلى أصغر سمك، كل يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه، فحسب، ولا يسعى أحد إلا للذاته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة، فغاية همته، وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته.. فيا أوروبا ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا رب كل شيء، وخالقه، إذ أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة.." <sup>12</sup>

بناء على هذا التفسير الجائر للتاريخ والمعتقد والقيم، لم يكن من عجب أن تتحول الحياة في كثير من الأقطار التي تحميم عليها هذه الفلسفة إلى حياة ملؤها الاضطراب، والإباحية، والسفسفة، والقلق، وقد صور الإمام النورسي حالة الحياة التي تسيطر عليها هذه الفلسفة وصفا دقيقا، فقال ما نصه:

".. فيا أوروبا التي نأت عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة، لقد أهديت بدهائك الأعور كالدجال لروح البشر حالة جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له. إذ يهوي بالإنسان من ذرة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، وإلى

أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الوبيل إلا ملاحيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحس، وتخدير الشعور مؤقتاً، وكمالياتك المزخرفة وأهواؤك المنومة.. فبعسا لك ولدوانك الذي يكون هو القاضي عليك.. نعم إن ما فتحته أمام البشرية من طريق يشبه هذا المثال المذكور..<sup>13</sup>.

هكذا حاول الإمام تقريب الصورة التي آلت إليها الأوضاع في أوروبا الثانية نتيجة خروجها وتمرداها على كل الديانات، وخاصة الديانة النصرانية بمبادئها الداعية إلى الرحمة والشفقة وحسن الجوار، وصللة الرحم.

إن إمعان الفكر في هذه النظرة النورية إلى المسألة الغربية في تلك المرحلة من تاريخ الأمة، يهدي المرء إلى تقرير القول بأنها كانت نظرة ذات أبعاد منهجية تجعلها جديرة بالدراسة والتحقيق والتحليل، ذلك لأنها — على الرغم من قساوة عباراتها حيناً على أوروبا الثانية — أصرت على ضرورة التأكيد على التفريق بين أوروبا النافعة وأوروبا الضارة، كما أبت إلا أن تسلط الضوء بصورة علمية موضوعية على محاسن المدينة الحاضرة والقيم الأصيلة التي مكنت أوروبا من بناء حضارتها، والتقدم على غيرها من أمم الأرض.

وفضلاً عن هذا، فإنه حاول بكل ما أوتي من قوة بيان وسداد فكر أن يبينه العامة والخاصة على مساوئ المدينة الحاضرة التي تترجمها أوروبا الضارة في تصرفاتها وتعاملاتها مع غيرها من أمم الأرض. ولم يخل تحليله لهذه الأوروبا من تأثر بالأهوال الكئيبة والظروف المأسوية التي كانت تمر بها الأمة أيامئذ، وقد تجلّى هذا التأثير بشدة لغته، وإصراره على استخدام التعبيرات القاسية والمعبرة عن الآلام التي كانت تجتاحه وهو يرى شريحة من أبناء الأمة يسعون جاهدين إلى تقليد أوروبا الضارة، وتجاوز أوروبا النافعة استخفافاً من لدن بعضهم، وجهلاً من لدن بعض آخر لما تنتظم المدينة الإسلامية التي أفل نجمها بفعل البشر من محاسن وقيم انطلق منها أوروبا النافعة في نهضتها وتطورها وتقدمها.

لئن كانت المنهجية تقتضي الابتعاد عن استخدام العبارات العنيفة، فإنه ينبغي أن يعذر إمامنا العلامة — رحمه الله — عن عدم التزامه في بعض الأحيان بهذا البعد، وما ذلك إلا نتيجة الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية التي سادت واعتلت أيامئذ، وكان وقعها على الإمام شديداً وعظيماً.

وأيا ما كان الأمر، فإننا نخلص إلى القول بأن هذه النظرة النورية تستحق التقويم العلمي الشامل، وتستحق أن تكون موضوعا لدراسات وأبحاث علمية جادة في المؤسسات التعليمية الراقية التي تعنى بتحسين الجيل الصاعد بالمناعات العلمية المطلوبة في العصر الراهن للتعامل مع المسألة الغربية بطريقة موضوعية بعيدا عن الانفعال والعاطفة والحماسة. وإلى أن يقيض الله لهذه المهمة من يروم خدمة الأمة في العصر الحاضر، نرى أن تتبع هذا المبحث بإلقاء عثارة تقويمية للنظرة النورية إلى المسألة الغربية.

## المبحث الثاني

### في تقويم منهجي للنظرة النورية إلى المسألة الغربية

لئن تبدت لنا النظرة النورية إلى المسألة الغربية في ضوء ما توافر لدينا من معلومات وأقوال متأثرة عن الإمام النورسي، ولئن أدركنا من خلال العرض والتحليل كون تلك النظرة من النظرات المخالفة للعديد من النظرات السابقة واللاحقة عليها، لذلك، فإننا نرى أن نعمل على هذا المبحث لنقف — بجلاء — على أهم الخصائص المنهجية التي نخال النظرة النورية قد انفردت بها دون سواها من النظرات التي حاولت ذات يوم تحليل المسألة الغربية وإبرازها للعالمين، بيد أنها في معظم الأحيان لم تخل — كما أسلفنا — من الافتقار إلى العديد من الخصائص المنهجية التي ينبغي توافرها في التحليلات العلمية للمسائل الشائكة والمتشعبة كالمسألة الغربية.

وبالرجوع إلى أهل العلم بمنهج البحث والتحقيق والمتخصصين في تحليل الأفكار والآراء، نجد ثمة اتفاقا بينهم على أن التحليل العلمي الدقيق للأفكار ينبغي أن تتوافر فيها جملة من الأسس الضرورية الهامة، ومن أهمها: الموضوعية، والعلمية، والشمولية. فيعد التحليل علميًا وحققيًا إذا انتظمت هذه الركائز. ومن ثم، فإن تقويم أي تحليل أو نظرة أو فكرة، ينبغي أن يتمحور حول التحقق من مدى توافر هذه الأسس العاصمة للتحليل من الانحيازية والتطويعية والتجزئية والجزئية.

وإذ الأمر كذلك، وهو كذلك، فهلمّ بنا لنقف هنيهة تبيين من خلالها من مدى توافر هذه الأسس في النظرة النورية إلى المسألة الغربية:

أولاً: الموضوعية في الطرح:

ليس من مرية في أنه من طبيعة الأفكار والآراء التأثير المباشر وغير المباشر بالقناعات القبلية والتقلبات الزمانية والمكانية والعادية، ومن الصعب بالمكان أن يتجرد المفكر تجردا كلياً من ترسبات ظروف الزمان وآثار تقلبات الأيام والأحوال، وكثيراً ما تدفع الظروف والأحوال المفكر إلى تبني مواقف وآراء تعكس التأثير السلبي أو الإيجابي، بما يمجج الساحة من ظروف وأحوال، ولا يسلم من هذه الظاهرة من المفكرين والعلماء إلا فئة قليلة يتميزون بالصمود أمام العواصف الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويتحلون بالتأمل والتأني والأناة في نظرهم إلى ما يدهم ساحتهم من مستجدات وأحوال وأهوال. ولعل نظرة سريعة فيما تعج عالم الكتابة والتأليف من أبحاث ودراسات وكتب، تبتك أن للزمان سطوة وتأثيراً غير منكورين على عامة المفكرين في تصوراتهم ونظراتهم إلى الأشياء والمسائل.

ومن ثم، تواتر عند العالمين عدم الاعتداد بالتاريخ مصدراً للتشريع، كما تواتر عند أهل العلم بالأصول والفقهاء أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال والعادات والتقاليد، ويكاد علماء الرجال — الجرح والتعديل — يتفقون على عدم قبول رواية المحدثين الذين ابتلوا في المحن أو شاركوا في الفتن والاضطراب، ومرد هذا كله إلى الاعتراف الأكيد بتأثير الزمان والمكان الإيجابي أو السلبي على تفكير المفكر ونظرة إلى الأشياء وحكمه على الظواهر.

ولئن كان هذا الأمر جلياً يدركه أولئك الذين يتعاملون مع أعمال المفكرين ويغوصون في أعماق مراميمهم ومقاصدهم، فإن نظرة متمعنة في جل الأعمال التي تركها الإمام النورسي، تدلك على محاولته الدائبة والدائمة عدم إخضاع أفكاره وآرائه الإصلاحية لظروف الزمان والمكان، وتقلبات الأيام والأحوال، وإصراره على ضرورة جعل الأفكار والآراء حاكمة على الزمان والمكان لا محكومة بهما، فالزمان والمكان في نظره الصائب يجب أن يخضعاً للآراء والأفكار لا لأن تخضع لهما الأفكار والآراء. ومقتضى هذه النظرة الابتعاد عن التأثير بتقلبات الأهواء والشهوات والإرادات عند الصدع برأي أو فكر، كما أن مقتضى هذه النظرة التجرد من القناعات القبلية المنسوجة إزاء شيء من الأشياء أو ظاهرة من الظواهر التي تحدث في المجتمع، وهذا ما نرومه من الموضوعية.

وقد أوفى نظرة الإمام النورسي — رحمه الله — إلى المسألة الغربية على الموضوعية والتجرد والوضوح، إذ إن نظريته تجاوزت الرضوخ لظروف الزمان التي كانت سائدة أيامئذ، وتجاوزت استحضر تقلبات المكان والتأثر بها، فعلى الرغم من الظروف النفسية العويصة الصعبة التي كانت

الأمة الإسلامية تمر بما إبان الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من سيطرة الشعور بالهزيمة واليأس لدى البعض، واستعلاء الشعور بالانبهار والانخداع، فإن الإمام النورسي أبي ألا تكون نظرتة أسيرة لأي من هذين الشعورين المتأثرين بظروف الزمان والمكان والأحوال السائدة.

ولكأني بالإمام وهو يقدم نظرتة القائمة على الموضوعية العلمية، يريد أن يقرر بجلاء ضرورة العودة إلى المنهج القرآني عند التعامل مع الأفكار والأشخاص، وهذا المنهج يرفض تبعية تعاليم الشرع للزمان والمكان غير الطبيعيين، ويراهما تابعين وخاضعين لها، وفي هذا يقول المولى الكريم مخاطبا نبيه — عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات — ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ المائدة: 7، وقال في موضع آخر: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا، وإذا حللتم فاصطادوا، ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ المائدة: 2. وقال أيضا ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوؤوا، أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ النساء: 135.

إن هذه الآيات الكريمة ومثيلاتها في الذكر الحكيم والأحاديث النبوية المتكاثرة تأكيد وتقرير بأن الموضوعية هي السمة الأساسية التي تميز شخصية المسلم عن غيره، وتجعل حكمه ونظرتة إلى الأشياء والأفعال نظرة منصفة لا مكان فيها للأهواء والتزوات والتقلبات والاضطرابات، وأي حيدة عن الموضوعية، فإن من شأن ذلك أن يقود المرء إلى الظلم وعدم الإنصاف، وبخس الناس أشياءهم بغير حق، ومادام الظلم والحيث محرم في الشرع، فإن التغاضي عن محاسن المخالف وغمطه حقه يعد ذلك محرما بحسبانه ظلما، وقد حرّم الله الظلم على نفسه، وجعله محرما بين عباده.

ومن ثم، فإن نظرة المفكر المنصف الحصيف الرزين إلى المسألة الغربية ينبغي لها أن تكون موضوعية بحيث ييدي ما فيها من محاسن، ومساوئ، ولا يجوز لها نسبة محاسن إليها ليست فيها، أو نسبة مساوئ إليها، وكل ذلك يعد جورا وحييفا وظلما.

**الثانية: العلمية والشمولية في الطرح:**

من المتواتر لدى أولى العلم والنهي أن نظرة المفكر المنصف الواعي إلى الأحداث والمسائل ينبغي لها أن تختلف عن نظرة العامة وأنصاف المفكرين والعلماء، فالمفكر الحصيف يسمو بنظرته من أن تتأثر وتخضع لأهواء العامة وشهوات الحكام، ويدفعه ضميره الحي إلى التغلب على لحظات الغضب والانفعال عند البوح برأيه أو نظراته في مسألة من المسائل، ولا يمكن أن يعد المفكر مفكراً حقيقياً إذا كان همه إرضاء العوام، أو تكلف التقرب إلى الحكام على حساب فكره ورأيه ونظرته.

ومن ثم، فإن قراءة متأنية في الطروحات الفكرية التي تمتلئ بها الساحة الإسلامية، تهدينا إلى الزعم بأن ثمة نجشاً فكرياً عمّت به البلوى في عالم الأفكار والآراء، كما تهدينا تلك القراءة إلى تقرير القول بأن هنالك فصاماً نكداً وانفصالاً واضحاً بين ما يحمله ضمير كثير من المفكرين من آراء وأفكار، وبين ما تبوح به أقلامهم ومؤلفاتهم من آراء وأقوال وأفكار، ومرد هذه الازدواجية في عالم النخب والمفكرين إلى الرغبة العارمة إما: في إرضاء العامة وكسب العوام، أو التزلف إلى رجل السيف والتقرب منه بأجنس الأثمان وأنحس الطرق والوسائل. ولهذا، فلا غرو أن تنتعش وتروج في الواقع الإسلامي سوق الأفكار المنحوسة والتحليلات المدسوسة التي جلبت ولا تزال تجلب مزيداً من التفنت والتشتت والتفكك للسواد الأعظم من أبناء الأمة.

ولقد كانت من نتيجة هذا الانحراف الفكري أن عاشت الأمة ولا تزال تعيش رهينة ورفيسة التحليلات الفكرية المغشوشة والنظرات المتطرفة إلى المسألة الغريبة والتي لا تخلو من أن يكون تطرفاً إلى أقصى اليمين أو تطرفاً إلى أقصى اليسار، واعتباراً بأن سياسات الأمم والدول ترسم في ضوء تلك التحليلات التي يقدمها المفكرون أو المحسوبون على الفكر، فإنه ليس من عجب أن يشهد العالم الإسلامي انقساماً وتوزعاً بين هذه التحليلات المتطرفة، إذ إن عموم الأمة والشعوب الإسلامية في أرجاء المعمورة اختارت إما: الجنوح التام للغرب بحسبانه الملاذ والمخرج مما نحن فيه من تخلف وتأخر، أو الارتقاء في أحضان الرفض التام للغرب بوصفه مصدر ومحور الشر الدائم للعالم الإسلامي، وباعتباره سبب كل الرزايا والبلايا والمآسي التي تجتاح العباد والبلاد.

إن غياب العلمية والشمولية في معظم الدراسات والأبحاث التي عني أربابها بتناول المسألة الغريبة من زاوية ضيقة هو المسؤول المسؤولة التامة عن هذه المواقف غير المتوازنة من المسألة الغريبة، وبالتأمل في النظرة النورية إلى هذه المسألة، يجد المرء أنها سمت بنفسها من الوقوع في هذا التغييب المتعمد للعلمية والشمولية والموضوعية، إذ إنها اتسمت — كما رأينا — بتسليط الضوء

على المسألة بصورة متوازنة وصریحة بعيداً عن التأثر بتقلبات أهواء العوام، وأمزجة رجال السيف في تلك الأيام، ولقد اختار الاعتدال والوسطية في النظر إلى هذه المسألة، كما ابتعد عن التطرف لأقصى اليمين أو لأقصى اليسار، فالغرب في نظره ليس كله شراً، وليس كله خيراً، بل إن العقيدة النصرانية الحققة هي الأخرى ليست عقيدة خالية من المبادئ السامية والخصال الحميدة، وليست هي المسؤولة عن نشأة ما سَمَّاه بأوروبا الثانية الضارة، وبالتالي، فإن التعامل معه ينبغي أن يقوم على استحضار أمين لهذا البعد، كما أن الحكم عليه ينبغي أن يتأسس على التمييز بين الغرب النافع والغرب الضار.

وفضلاً عن هذا، فإنه لا ينبغي تحميل عقيدة أو دين التصرفات التي تقوم بها أوروبا الثانية، فالأديان السماوية كلها لا تقر بأي من تلك التصرفات، بل إن الأديان كافة تندد بها، وتنعى على فاعليها، وتبشّر منها تبرؤاً، وتراها شؤماً ووبالاً عليها. وعليه، فإن تلك أوروبا تمردت على مبادئ الأديان السماوية كافة، وخاصة منها الديانة النصرانية الحققة، كما أنها تبرأت من المبادئ السامية التي تدعو إليها تلك الديانة، الأمر الذي صيّر لها أوروبا ضارة ومضرة بالبشرية جمعاء. وليس أدل على هذا من أن أوروبا الأولى التي تختلف في تصرفاتها وتعاملاتها عن أوروبا الثانية، كانت نافعة لأنها احتمت بالعديد من مبادئ النصرانية الحققة، كما أنها سخرت إنجازاتها وإمكاناتها وصناعاتها لخدمة البشرية، وتسهيل حياة الإنسان على الأرض بعيداً عن الاستعلاء والتعجّر والطغيان والاعتداء والاستكبار.

إن علمية الطرح النوري لم تتوقف عند هذا الحد من النظرة الوسطية المعتدلة إلى الديانة النصرانية والمسألة الغربية، بل إن الإمام النورسي — رحمه الله — أصّر على ضرورة إبراز القيم والأسباب المادية التي مكّنت أوروبا من بناء حضارتها وتقدمها على غيرها من أمم الأرض، ويتمثل تلك القيم فيما تميزت ولا تزال تتميز به من التأني والانضباط والانتظام والصلابة والحزم وحسن التخطيط لكل ما تقدم عليه من عمل أو تصرف.

إن هذه القيم التي تعد في حقيقتها محاسن أوروبا ترتد في جذورها إلى المبادئ الشرعية التي دعا إليها ديننا الحنيف، غير أن عامة المسلمين في أرجاء المعمورة تجاوزوها وتغافلوها، واستبدلوها بغيرها، وتشكو بلدانهم وأقطارهم من غياب هذه القيم وانعدامها شبه الكلي في كثير من الأحيان، ولا غرو — إذا — أن تكون النتيجة الحتمية — وفق السنة الإلهية — تقدم أوروبا وتفوقها على العالم الإسلامي في مجال الصناعة والتقنية والفنون، ولا عجب أن تحل حضارة

أوروبا محل الحضارة الإسلامية، بل لا عجب في أن تخدم الحضارات تابعة وخاضعة لإملاءات الحضارة الغربية المتمكنة.

على أنه من الجدير بالتحديد والتقرير أن التزام الإمام النورسي العلمية في نظريته إلى المسألة الغربية لم يتوقف عند إبرازه محاسن أوروبا الأولى، والإشادة بالأسباب والمبادئ التي أقامت عليها تقدمها وتطورها وهضمتها، ولكنه انتظمت تلك العلمية تحليلاً صريحاً وواضحاً لمساوئ أوروبا الثانية التي تمردت — كما سبق — على الدين العيسوي وعلى مبادئه الإنسانية، فهذه أوروبا في نظرة الإمام — رحمه الله — هي المسؤولة عن جزء كبير من الشقاء والتعاسة التي يعيش فيها السواد الأعظم من البشرية، وقد أضرت هذه أوروبا بالإنسانية، إذ إنها دفعت بإنجازاتها ونتائج علومها وصناعاتها إلى الإضرار بالإنسانية، كما أنها تعد في حقيقتها شقية وقلقة ومضطربة، ويعزو الإمام شقاء هذه أوروبا إلى تمرداها على مبادئ النصرانية الحقة، واستخدامها ما من الله به عليها من إنجازات وصناعات فيما لا يعود إلا بالشر والضرر على البشرية. ولهذا، فإن على العالم الإسلامي الابتعاد عن هذه أوروبا، فإنها لن تزيد إلا تخلفاً وتأخراً وتقهقراً وارتكاساً وانتكاساً.

وصفوة القول، لقد أوفت النظرة النورية على العلمية والشمولية التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العصر الراهن في تعاملها مع المسألة الغربية، وكان مقتضى هذه العلمية والشمولية ضرورة العودة الصادقة إلى تبني الأسباب والخصال الحميدة التي استندت إليها أوروبا في بناء هضمتها وتقدمها وحضارتها، كما كان مقتضاها ضرورة الوعي على أهمية الأديان وخاصة الأديان السماوية في ترشيد الإنجازات والصناعات وتسخيرها لخدمة البشرية والإنسانية، فليس ثمة دين سماوي يدعو أتباعه إلى تدمير البنى التحتية للأمم، وسفك الأرواح، وهتك الأعراض، وإبادة الممتلكات، والاستعلاء في الأرض، والتكبر على العباد، والخضوع للشهوات والتزوات، فكل أولئك آفات وأمراض تواترت الأديان السماوية على محاربتها والوقوف منها موقف الرفض والإنكار.

أجل، إنه ليس من عجب أن تكون العلمية حاضرة في جميع جوانب النظرة النورية، ذلك لأن الإمام — رحمه الله — تشبع من فهمه للمنهجية القرآنية القائمة على العلمية المتمثلة في الدعوة المستمرة إلى الوسطية ورفض الغلو والتطرف والتزمت في السلوك والمعتقد والتصرف، فقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة التي تدعو المسلمين إلى التزام الاعتدال والوسطية في أفكارهم وتصرفاتهم، ومن ذلك قوله تعالى واصفاً الأمة ﴿وَكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء

على الناس ويكون الرسول عليكم شاهداً ﴿ البقرة: 143 وقوله ﴿ والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴿ الفرقان: 67، وثمة نصوص عديدة في هذا المجال لا يتسع المقام لعرضها.

إن تبرأ الشرع الحنيف من الأمراض الفكرية المتمثلة في الغلو والتطرف والتزمت والتبرم، يعود إلى كون هذه الأمراض الأسباب الرئيسة وراء الانزلاقات الفكرية والزلات العقديّة، ذلك لأن غياب الاعتدال والوسطية في التفكير والتحليل والتقويم ينتج عنه نشأة تلك الأمراض، كما ينتج عنه إصابة الأمم في ضعف في رؤيتها، ووهن في سلوكياتها، وعجز في تعاملها مع أزمتها ومشكلاتها.

ومهما يكن من شيء، فإن ما نراه اليوم من تصرفات هوجاء وسلوكيات حمقاء ناتجة عن الغلو والتطرف والتزمت من لدن بعض أتباع الأديان السماوية، لا ينبغي نسبتها إلى الأديان السماوية، فجميع تلك الأديان بريئة من كل دم يسفك باسمه، ومن كل عرض يهتك باسمه، ومن كل مال يباد باسمه.

إن الحوار والسلام والأمان والأمن والاستقرار يعد أولئك ركائز وأساسا دعت إلى توفيرها وتعميقها وتثبيتها جميع الأديان السماوية، ولم يشذ عنها دين سماوي قط، وقد حاول الإمام النورسي — رحمه الله — تقرير هذا التفكير والتأكيد عليه، سعيا منه إلى القضاء على تذرعات المتذرعين، وخداعات الخادعين والمخادعين الذين يستندون إلى الأديان السماوية في تصرفاتهم المخالفة لتعاليم تلك الأديان جملة وتفصيلا.

### المبحث الثالث

#### في النظرة النورية وواقع العالم الإسلامي الراهن

ليس بخاف على أحد أن الأمة الإسلامية اليوم على مفترق الطرق، وتمر بمنعطفات خطيرة، كما تواجه تحديات جسيمة، مما يجعل مفكرها مطالبين اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن يتسموا بالشجاعة الفكرية في نظراتهم، وأن يتحلوا بالرشد العلمي في تحليلاتهم، وأن يسموا في أفكارهم وآرائهم على الخضوع لتقلبات أهواء العوام ولضغوطات المؤسسات المتسلطة على

الأفكار والأحلام، فواجبهم اليوم الأخذ بأيدي الأمة نحو سبل الرشاد، والبوح مخلصين وصادقين بما يملئ عليهم ضمائرهم البوح به تجاه الأحداث العالمية المترامية والمتعاقبة والمتلاحقة.

إن المرحلة الفكرية الراهنة لعموم الأمة عويصة وشاذة ومعقدة، والواقع السياسي للسواد الأعظم من الديار الإسلامية لا يسر الأعداء ولا الأصدقاء، وينذر بمزيد من الآلام والمعاناة والإحزن والحنن إذا لم يشمل الأمة لطف من الله في قدره وقضائه. إنه ليس بخاف على أحد من الغياري والمفكرين صنوف الأعراض والأمراض التي تجتاح الأمة، وطمع القوى والتكتلات العالمية في ثرواتها ومواردها الطبيعية، فضلا عن تلذذ المكابرين بامتهان كرامتها وعزتها، مما جعل وزن الأمة يشهد يوما بعد يوم تراجعاً وتقهقراً في المحافل الدولية.

إن هذه الحزن القاسيات والفجائع المبكيات هي التي دفعت الإمام النورسي — رحمه الله تعالى — أن ينذر حياته للتنبه عليها، وتحذير الأمة من عواقبها، مما جعله بحق رجل القدر في حياة أمة. إننا نعتقد أن عموم الأمة مسؤولة عن هذه الظروف الاستثنائية، وتقع المسؤولية على النخب والمفكرين الذين رسموا للأمة سياساتها وعلاقاتها مع المحتلين والغزاة، حيث إنه بفعل من النخب غدت دول العالم الإسلامي — إلى وقت قريب — متوزعة على ما كان يعرف بالمعسكر الغربي والمعسكر الشرقي، وباتتصاير المعسكر الغربي على المعسكر الشرقي، أجبر المنضوون تحت لواء المعسكر الشرقي على اللحاق القسري بالمعسكر الغربي الذي كانوا يحسبون ذات يوم محور شر ومصدر شقاء البشرية والإنسانية برمتها، وأما المحتمون بتوجيهات المعسكر الغربي، فقد ازدادوا تمسكا وتوغلا في الخضوع والخنوع لتوجيهات هذا المعسكر، وخاصة بعد انتصاره الباهر على غريمه السابق.

أمام هذه الظروف الاستثنائية، يجب على النخب والمفكرين اليوم أن تتفتق أذهانهم، وتجد قرائحهم — مخلصين وجادين — بالآراء والأفكار التي من شأنها إخراج الأمة من حالة التيه الفكري والانسحاب الحضاري، وذلك من خلال التزام الموضوعية والعلمية في النظرة إلى سائر المسائل والقضايا التي تتعلق بالأمة، وخاصة المسألة الغربية التي زلت فيها الأقدام، وضلت فيها الألباب، وتناقضت فيها الاتجاهات.

لئن تأمل المرء في النظرة النورية وما حوته من إشراقات وتحليلات قيمة، ولئن تابع المرء بدقة وإمعان الظروف العالمية التي كانت سائدة يوم أن باح الإمام — رحمه الله — بهذه النظرة، فإننا سنجد أن أوروبا التي كان يعينها في نظرتها لم تكن منقسمة على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا

الضارة، وإن قامت بينها الحروب والقلاقل والأزمات، بيد أنه كان يعني بنظرته ما يوجد في حضارة أوروبا ومدنيتها من محاسن ومساوئ، وعدّ محاسنها أوروبا قائمة بجد ذاتها، كما اعتبر مساوئها أوروبا الثانية المختلفة عن الأولى.

لكأني بهذه النظرة النورية الشاملة تستشرف المستقبل وتؤكد بأن أوروبا ستتنقسم — إن عاجلا أو آجلا — على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة! وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد تحقق هذا الاستشراق النوري في القرن الحالي الذي نعيش فيه، ذلك لأن أوروبا (الغرب) غدت اليوم منقسمة إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة، فأوروبا النافعة تنعم بالتزام قيادتها بالبقية الباقية من مبادئ النصرانية الحقة، وأما أوروبا الضارة اليوم، فإنها — وإن ادعت انتماء إلى النصرانية — غير أن أفعالها وتصرفاتها تثبتك أنها أمست ضارة ومضرة بالبشرية جمعاء، ولا يعدو انتماءها إلى الدين العيسوي أن يكون انتماء صوريا فجا هشاً كما لا يخفى ذلك على أحد من أولي النهى والألباب.

وبناء على هذا، فإنه حري بعموم الأمة وخاصة نخبها ومفكريها المخلصين الغبارى أن يستأنسوا وينطلقوا من النظرة النورية العلمية والموضوعية إلى المسألة الغربية مفرقين في أطروحاتهم بين أوروبا النافعة (=الغرب النافع) وأوروبا الثانية (=الغرب الضار)، فأوروبا النافعة ينبغي التواصل معها، وفتح حوارات واسعة معها، والبحث عن السبل الممكنة لتعميق العلاقات والاتصالات بينها وبين العالم الإسلامي على مختلف الأصعدة والمجالات سعياً إلى إسعاد الإنسانية والبشرية برمتها، وإيماناً بأن تلك الأوروبا تشاطر العالم الإسلامي أحلامها وآمالها وتطلعاتها. فليس من مصلحة العالم الإسلامي أفراداً وشعوباً محاربة العالم كله، كما أنه من المكابرة إعلان الحرب كل الحرب على الغرب كل الغرب دون تمييز وتفريق بين الغرب النافع منه والغرب الضار؛ بل لا بد من استثمار ما في الغرب النافع من محاسن وخيرات وتوظيفها لخدمة قضايا الأمة ومساندة مواقفها، بل لا يجب على النخب والمفكرين المخلصين البحث عن كافة السبل الممكنة لمحاورة الغرب الضار والسعي نحو تحويله إلى غرب نافع، ذلك لأن ضرر هذا الغرب لا يعدو أن يكون تمرداً منه على النصرانية الحقة، وخروجاً سافراً على ما تدعو إليه مبادئ الدين العيسوي، ولهذا، فإن هذا الضرر في حقيقته ضرر طارئ غير مؤصل في العقيدة التي يدعيها هذا الغرب المارد المائل عن مبادئ النصرانية، وصدق المفكر الإسلامي المعاصر الدكتور أحمد كمال أبو المجد عندما قال:

".. ليس من شك في أن الأديان السماوية تقوم جميعها على الإصلاح الإسلامي.. لذلك، فإن أتباعها، أيا كانت انتماءاتهم الثقافية الأخرى، مطالبون بوضع أيديهم في أيدي المسلمين، ليقدّموا في ثقة وتواضع هذا الإسهام الإصلاحي الكبير الذي تتطلع إليه الشعوب بعد أن فسدت العلاقات، وتقطعت المواد، وصارت أهوال الحروب أقرب وقوعا مما يظن الكثيرون ممن أصمّت أسماعهم نداءات العولمة وتقارب الشعوب.." <sup>14</sup>

وعليه، فإنه لا ينبغي إغلاق الحوار مع هذا الغرب، بل يجب محاورته بالتي هي أحسن بغية إزالة ما ران على قلبه من مواقف سلبية ومخلفات مزورة وملفقة تجاه قضايا الأمة.

وعليه، فإنه لم يعد ينفع العالم الإسلامي اليوم — قادة وشعوبا — الإصرار كل الإصرار على تحميل الآخرين — وخاصة الغرب — مسؤولية ما يحتاج الأمة من جوائح وفجائع وفضائح واعتداءات، كما لم يعد يسعفنا التوغل في المثاليات وانتظار المدد السماوي دون الأخذ بالأسباب والعوامل، فذلك المدد حاشاه أن يدركنا إذا لم نغير من واقعنا الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل لا ينبغي لنا أن نطمع في ذلك المدد ما لم تغد قيم بناء الحضارات والحفاظ عليها حاضرة في تصرفاتنا وتعاملنا مع الظواهر المختلفة، وصدق الله جل في علاه ﴿لله معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..﴾ <sup>11</sup>، ويوم أن تعود الأمة إلى دينها، وتخلص في نيتها، وتطبق القيم التي تبنى عليها الحضارات، يؤمّنذ سيتحقق لها ما وعد الله به في قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ <sup>55</sup> والنور: 55 وذلك وعد الله ومن أوفى بعهده من الله!

وصفوة القول، إذا أرد العالم الإسلامي اليوم الإسهام في بناء عالم آمن مسالم متحاب ومتعاون ومتربط، فإنه حري بنا إعادة النظر في علاقاتنا مع الآخرين، وجعل الإيمان بالتعددية والتنوع قاعدة إيمانية لا نعيد عنها، بل نبنى عليها الجسور مع أتباع الديانات الأخرى، وخاصة منها الديانات السماوية، لا بد من الانفتاح على هذه الديانات، والتواصل معها لمصلحة الإنسانية، ومقتضى هذا ضرورة إعادة النظر الحضيف في كثير مما قررت المدونات الفقهية حول علاقة المسلمين بغير المسلمين، وخاصة فيما يتعلق بتقسيمات الدنيا إلى دار إسلام ودار كفر، ودار حرب ودار عهد، والأحكام التي نسجوها حول هذه التقسيمات. فليس من شك في أن

هذه التقسيمات صياغات فقهية لا تسمو على المراجعة والتقويم والتعديل في ضوء ما يموج العالم اليوم من ظروف سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية لم يكن لها وجود يوم أن صيغت تلك الاجتهادات الفقهية حول رسم علاقات المسلمين بغيرهم.

وعند هذا القدر نصل إلى نهاية هذه الوريقة سائلين المولى الكريم أن يجزي عنا إمامنا خير الجزاء، ويجعل الجنة مثواه، وأن يلطف بالعالم الإسلامي في قدره وقضائه، ويكشف عنه الهم والغم والوهن والحن، إنه ولي ذلك وعليه قدير. وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا وإليه نيب.

### هوامش الدراسة وأهم مراجعها:

- 1 انظر: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي (بيروت، المكتبة العصرية، طبعة ثانية عام 1996م) ص137 بتصرف
- 2 لقب "سعيد الجديد" أطلقه الإمام النورسي على نفسه من وصوله منفيا إلى مدينة (بارلا) سنة 1927م وحتى خروجه من سجن أفيون سنة 1949م. والجدير ذكره أن الإمام النورسي كان يقسم حياته إلى ثلاث مراحل، كان يسمي أولها مرحلة "سعيد القديم" وتبدأ هذه المرحلة من السنوات المبكرة لحياته إلى وصوله منفيا إلى بارلا سنة 1927م، وأما المرحلة الثانية، فكان يسميها مرحلة "سعيد الجديد" وتبدأ من سنة 1927م إلى سنة 1949م، وأما المرحلة الثالثة، فكان يسميها مرحلة "سعيد الثالث" وتمتد من فترة خروجه من سجن أفيون سنة 1949م إلى انتقاله إلى جوار المولى الكريم سنة 1960م. ولكل مرحلة من هذه المراحل طابع اختصت به، ولمزيد من المعلومات حولها، يراجع ما كتبه الأستاذ أورخان محمد في كتابه القيم "سعيد النورسي، رجل القدر في حياة أمة" (إسطنبول، شركة النسل، طبعة أولى 1995م) ص239-304 .
- 3 انظر: اللغات، بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي (استانبول، شركة النسل، طبعة أولى عام 1993م) 178-177 بتصرف واختصار
- 4 انظر: المثوي العربي، بديع الزمان النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي (استانبول، شركة سوزلر، طبعة رابعة عام 1999م) هامش ص268
- 5 انظر: صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي (استانبول، شركة النسل للطباعة، طبعة أولى عام 1995م) ص355
- 6 انظر: صيقل الإسلام – مرجع سابق – ص57
- 7 انظر: الكلمات، بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي (استانبول، شركة سوزلر، طبعة أولى عام 1992م) ص858 باختصار.
- 8 انظر: المثوي العربي – مرجع سابق – ص268
- 9 انظر: اللغات – مرجع سابق – ص177

- 10 انظر: سر تأخر العرب والمسلمين — محمد الغزالي — (القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، طبعة أولى عام 1995م) ص45 بتصريف..
- 11 يقرر المفكر الإسلامي المعاصر رجاء جارودي أن الثقافة المادية التي تبنتها أوروبا الضارة تقوم على أربعة مبادئ، وهي: الفصل بين العلم والحكمة، أي الفصل بين الوسائل والغايات، فالحياة الدنيا غاية في ذاتها، وليس وراءها حياة أخرى، 2— إخضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص، ومقدارها المادي مع استبعاد كل أثارة للحب والإيمان والمعاني الروحية. 3— الفردية أو الأثانية التي تجعل امرءًا ما أو جماعة ما، المحور والمقياس لكل شيء، وترى النظام الموضوع ليس إلا توازنًا مؤقتًا بين الأطماع المتنافسة. 4— إنكار التسامي، أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المتهافتات المفروضة، والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على الكم، وتستبعد الخلق والحرية والأمل.. انظر: نقلا من كتاب الدور الحضاري ص85-86 بتصريف واختصار.
- 12 انظر: **اللمعات — مرجع سابق — ص180**
- 13 انظر: المرجع السابق ص178.
- 14 انظر: الدوري الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، نخبة من الباحثين والكتتاب، (قطر، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة أولى عام 2000م) ص 74